فن الجاحظ

— ٢ —

« لغته[1] »

أحاط الجاحظ بخصائص اللغة ووقف على مجاريها ومصارفها وتبحَّر في جلائلها ودقائقها فقد ذكرت لكم انه صوَّر كل معرض من معارض الحياة ولكن الكاتب اذا شاء أن يصوّر الحياة على هذا الشكل لزمه أن يحب الكلمة وأن يشعر بها كما يشعر بكل جزء من أجزاء الحياة وهذا ما انصرف اليه الجاحظ فكل ما يمكنه الكاتب أن يصنعه بالألفاظ صنعة الجاحظ فقد عرض على ذهنه مفردات اللغة بحذافيرها ثم الَّف بينها تأليفاً محكماً ، عرض مفردات العلوم والصناعات ومفردات الحركات والأفكار ومفردات الجد والهزل والخلاصة عرض مفردات العالَم بجامعها . —

أعظم خصائص الجاحظ في هذا المعنى تفقهه في اللغة فهو ينزل اللفظ في منازله ويصبه في قوالبه بحيث لو فتشنا عن لفظ آخر للمعنى الذي يمثله لنا لما وجدنا لفظاً غيره يقوم مقامه أو يسدُّ مسدَّه ، ولم يقتصر في هذا التفقه على باب من أبواب المعاني أو على نوع من انواع الأفكار وانما اعطى المعاني حقوقها من الألفاظ في كل فنٍ من الفنون في الطب والفلسفة والصناعة والعلم وفي غير هذا كله من مذاهب الفكر فلا تجدون في فلسفته الا الفاظ الكم والكيف وما يماثلها من مصطلحات الفلاسفة وكذلك شأنه في كل باب من الأبواب فهو يستعمل لكل معنى من المعاني اللفظ الذي خلق لهذا المعنى فاذا أحبَّ مثلاً ان يصوّر لنا كسر الأعضاء قال : فقأ العين وهشم الأنف وهتم السن ودق العظم واذا

---

(١) هذه آخر محاضرات الاستاذ شفيق جبري وقد شرع في طبعها في كتاب خاص : سماه : الجاحظ معلم العقل والأدب : —

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

احب ان يمثل تجريد الاجسام من اغطيتها قال · سلخ الجلد ونفض الورق و كشطت الشمس جلودهم وكذلك لغته في تصوير فساد الاجسام كقوله : نغلت الجبنة او في تصوير اصوات الحيوان كقوله : شجيج البغل ونهيق الحمار او في تصوير الشرب كقوله : يلغ في الدم او كقوله : الحسو والعبة والنغبة او في تصوير بيوت الحيوان كقوله : الأفاحيص والتاريد الى غير ذلك من خصائص تفقهه فهو آخذ بمخنق اللغة لا يفوته لفظ من الفاظها ولا يغفل عن سر من اسرارها ·—

وإذا عمدتم الى آثار الحياة الخاصة وجدتم ان الجاحظ قد اتقن لغة كل اثر من هذه الآثار مهما كان حقيراً فقد اتقن لغة البخيل مثلاً فيستعمل في تصوير البخل الفاظ البخلاء كالحبات والقراريط والدوانيق والأرباع والأنصاف واشباهها واتقن لغة الطبخ كالشواء والانضاج واستحلاب الدسم وتعرق العظم والقفار والمسمون واتقن لغة الطعام بحذافيرها كالشبارقات والأخبصة والفالوذجات وما يقاربها واتقن لغة الماعون كالجفنة الأعشار او القصعة المثعبة او الجرة المكسورة العروة او الحب المقطوع الرأس ·—

انكم لتذكرون ان الجاحظ يميل في فنه الى الصور المحسوسة القريبة من كل حاسة من حواسنا وكما اولع بالصيغة المحسوسة فقد اولع باللفظة المحسوسة التي تؤثر في حواسنا فكأنما صاغ لغته ليعرض على انظارنا اشكال هذا العالم الظاهر : عالم الحركات والهيآت والطعام واللباس واضراب ذلك فلستم تجدون في لغته الا امثال قوله : تغمس خراطيمها — يتطوس لها — يتموج في اهابه — يتخلج — تعاريج ريشه — تهاويل الوانه — التوبير الى اشباه هذه اللغة المحسوسة ·—

ومن ولعه بهذه الطبقة من الالفاظ كان الجاحظ لا يتحامى في بعض الأوقات الفاظاً نجدها في عصرنا هذا بارزة عن ظل الطهارة كألفاظ المناكح وما ضارعها ولا عجب في ذلك فان الجاحظ من اصحاب الأدب الواقع ·—

وعلى الرغم من تبحر الجاحظ في اللغة وتفقهه فيها لم يجمد في هذه اللغة فقد تتبع مذاهب الفكر واعطى كل طور من اطوار هذا الفكر حقه من الكلمات فاذا عرضت له طائفة من خصائص بعض الحيوان كالجاموس وكالخنزير او من خصائص بعض الأجسام كالنار اشتق هذه الخصائص من الاسماء نفسها فقال : الجاموسية والخنزيرية والنارية والحيوانية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والجوهرية وعلى هذه الصورة اثبت ان لغة العرب مستعدة للحياة متأهبة لمجاراة اوضاع هذه الحياة ومذاهبها ٠—

وقد ذهب في هذا كله مذهباً أبعد فلم يتجنب في بعض الأوقات الألفاظ الأعجمية كلفظة : سوارست وامثالها ٠—

واذا وجدنا في بعض لغته شيئاً من الغموض فقد تكون هذه الألفاظ الغامضة انما هي الفاظ تاريخية وأُريد بها الألفاظ التي كانت تدل في عصر الجاحظ او في العصور التي تقدمته على معنى من المعاني كالطعام واللباس والسلاح وما ماثل ذلك ثم ذهب هذا المعنى بذهاب الذين كانوا يستعملونه فبقي الاسم وانطوى المسمى فلا نستطيع ان نتصور الاسم لاننا لا نرى المسمّى ولا نعرفه ، من هذا الشكل أسماء بعض الطعام كالعنب النيروزي والعنب الرازقي أو اسماء بعض اللباس كالقلنسوة الخدرية او اسماء بعض السفن كالجعفرية مثلاً ٠—

هذا آخر ما خطر بالبال من الكلام على لغة الجاحظ فقد ادركتم ان اللغة القت الى الجاحظ طاعتها فصرّفها في كل شيء وما أُريد ان افرغ من هذا الموضوع قبل ان ابيّن لكم على سبيل الاستشهاد مقدار اهتمام الافرنجة باللغة وبانتخاب الألفاظ ٠—

قال أناتول فرانس Anatole France في مقال له بحث فيه عن اسلوب لافونتين La Fontaine :

« كان لافونتين يولع بالكلمات ويعرف كيف ينتخبها ، ولا يكون المرء كاتباً الا اذا احسن اختياره للالفاظ ، فالكلمات هي افكار ، ولا سبيل الى الاصابة في الحكم الا بالتمكن من النحو والمفردات الصحيحة ، واظن ان الشعب الاول في العالم انما هو الشعب الذي يملك احسن الاصول في النحو وتنسيق اللفظ ، قد يقع في اغلب الحالات ان الرجال يتناحرون بسبب كلمات لا يدركون معانيها ، ولو فهم بعضهم كلام بعض لتعانقوا ، ولا شيء يعمل على رقي العقل البشري مثل معجم يضيء ذلة كل شيء ٠

يحب لافونتين العبارات القديمة فاذا وقع نظره على كلمة قديمة ، جزلة المعنى استخرجها من موضعها وضمنها شعره في المقام المناسب ٠

كان كثيراً ما يقرأ الروايات ، وقد قرأ منها قديمها وحديثها » اهـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال رودس Roudés في كتابه الخطيب العصري :

« اما وقد عرفتم كيف السبيل الى استخراج المعاني من مكامنها ، والمعاني هي مادة الخطاب والركن الذي يبنى عليه ، ولولاها لما تهدت لكم المداخل على الكلام اما وقد عرفتم ذلك كله فقد لزمكم ان تتبسطوا في استظهار المفردات حتى تتمكنوا من الافصاح عما يزدحم في صدوركم من متباين المعاني على اشكال تستعطفون بها القلوب وتجعلون للمعاني رونقاً وحياة :—

اجل فقد لزمكم ان تحفظوا من الألفاظ ما اعان عليه الامكان حتى لا ترتبكوا في الكلام فاذا فاتكم لفظة من الألفاظ لجأتم الى غيرها واذا وردتم معنى من المعاني تيسر لكم الصدور عنه فبدلتم وعدلتم من غير ان يساوركم شيءٌ من العجز عن ذلك .—

ومن قل حفظه للألفاظ صعبت عليه مذاهب البيان فلا يجد الى الافصاح سبيلاً ، فاذا لم يجتمع في الذهن طائفة كبيرة من الألفاظ التي تضافر على توضيح معنى من المعاني ذهب هذا المعنى من الصدور ، واذا لم تأخذوا انفسكم باستظهار الألفاظ والتعمق في الالمام بمعناها الحقيقي والمجازي ، والوقوف على ما يشاكلها ويجانسها ، وعلى ما يخالفها وينافرها ، اخفقتم ولم تظفروا بحوجائكم من البيان .—

كان الشاعر تيوفيل غوتيه يقرأ على ما يظهر صفحة من معجم لغوي في كل يوم ومن المحتمل ان بلزاك ، وبودلير ، وفلوبر ، وكلهم كتاب واقفون على اسرار اللغة بجامعها كانوا يعنون في هذه الكتب الضخمة (المعجمات اللغوية) التي تشتمل على عبقرية الامة وتنعكس فيها مظاهر حضارتها ، على تباينها في متعاقب الاحقاب .—

فمن الصواب على ما اعتقد ان نتقبل طرائق هؤلاء الكتاب فنقرأ في كل يوم صفحة من صفحات المعاجم اللغوية ، فان كثيراً منا يثابرون على تلاوة روايات الجرائد فلم لا نجد من يطالع صفحة من صفحات لاروس Larousse ؟

ربَّ كلمة تمرُّ بذهن رجل ذي مخيلة فتمثل له في ذهنه عالماً بجملته ، او حكايةً او نادرةً من نوادر التاريخ ، او منحىً من مناحي الطبيعة ، او مدينة من المدن ، اوعصراً من العصور ، وليس من السآمة في شيء ان يتنقل الفكر من مبتدإ الازمان الى منتهاها ، ومن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العلل والمقدمات الى النتائج ، ومن هوميروس ، الى هوغو ، وان يجمع المرء من الألفاظ ما ينفعه في غد ٠—

بيد ان معرفة الألفاظ وحدها لا تكفي المرء مؤنة الابانة عن هواجس فكره على صورة تلائم ، واسلوب يناسب ، فان من الضروري ان يعرف المرء كيف يصل هذه الألفاظ بعضها ببعض وان يركب منها جملاً صحيحة ، واضحة المرمى ، يسهل على الذين يسمعونها ادراكها وفهم معانيها والسبيل الى ذلك ان يستخرج المرء من الكتب والخطب العبارات الجميلة بانسجامها وتناسقها ٠—

وعلى هذه الصورة تجمعون لانفسكم مجموعة تضمون اليها في كل يوم طرائف حديثة ترجعون اليها ، فيتدرب ذهنكم على أساليب البيان ، وتقفون على اتصال الألفاظ بعضها ببعض فيكون لكلامكم رقة وطلاوة ٠—

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net